دكتور بهاء الأمير

يهود الدونمه(•)

• من كتاب : اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية.

وقـد تتشـكك ويأخـذك العجـب : أمـن المعقـول أن تعـيش عشـرات الأسـر أو مئاتهـا قرونـاً مزدوجـه الهويـة ويخـالف ظاهرهـا باطنهـا , فتتـوارث عقائـدها وأهـدافها وغاياتهـا وأنسـابها فـي الخفـاء وتعـيش حيـاة أخـرى بـين النـاس داخـل المجتمعـات التـي حلت فيها في العلن؟!

وربمـا تسـاءلت : كيـف اسـتطاعت هـذه الأسـر أن تتوغـل عبـر هـذه القـرون كلهـا فـي المجتمعـات الغربيـة وتـتمكن مـن الصـعود إلـى رأسـها والسـيطرة عليهـا دون أن يفطـن إليهـا ولا أن يـدرك حقيقتهـا ومـا الـذي تفعلـه وتسـير إليـه هـذه المجتمعـات أحد فيها؟

فإليـك مـا يزيـل عجبـك ويزيـدك يقينـاً ويـرد علـى تسـاؤلك فـي ثنايـا قصـة أخـرى ، أو القصة نفسها في زمان آخر ومكان آخر.

إليك صورة طبق الأصل من أسر الملك الإلهي ، ألا وهي يهود الدونمه.

فـي سـنة 1626م ولـد فـي إزميـر فـي تركيـا شَـبَتاي زئيفـي Sabati Zevi ، وكـان أبـوه مردخـاي زئيفـي تـاجراً غنيـاً ينحـدر مـن إحـدى الأسـر المهـاجرة مـن إسـبانيا التـي فتحـت لهـم الدولـة العثمانيـة أبوابهـا واسـتقبلتهم بترحـاب يعيشـوا فـي كنفهـا آمنـين بعد سقوط الأندلس وطرد الإسبان الكاثوليك لهم.

وأتـم شـبتاي زئيفـي دراسـة التـوارة والتلمـود علـى يـد مشـاهير الحاخامـات فـي عصره ثم صار حاخاماً.

وفــي ســنة 1648م أعلــن شــبتاي فــي أتباعــه وتلاميــذه أنــه الهامشــيحاه أو المســيا Messiah الــذي ينتظــر اليهــود إرســال الــرب لــه مــن نســل داود ليخلصــهم ويعـود بهـم إلـى أرضـهم المقدسـة ، ثـم أصـدر بيانـاً وجهـه إلـى اليهـود فـي كـل مكـان من العالم يعلنهم فيه أنه :

"أول ابــن للإلــه شــبتاي زئيفــي الهامشــيحاه مخلــص شــعب إســرائيل ، إلــى جميـع أبنـاء إسـرائيل ، لمـا كـان قـد قـدر لكـم أن تكونـوا جـديرين برؤيـة اليـوم العظـيم وإنجــاز وعــد الإلــه لأبنائــه ... لأنكــم لــن تبكــوا بعــد الآن ، فاســتمتعوا وغنــوا

واستبدلوا باليوم الذي كان يمضي من قبل في حزن وآلام يوم عيد لأني قد ظهرت".

وبدأ شبتاي وأتباعه التبشير بين اليهود بظهور الهامشيحاه واقتراب الخلاص ، وأرسل رسائله إلى التجمعات اليهودية ، فاستنفرت دعوته اليهود في كل مكان من الدولة العثمانية ، وفي كل بلد وصلت إليه في أوروبا ، وصارت كل الجماعات اليهودية تقريباً من بولندا إلى كييف من أتباعه.

وقدمت على شبتاي زئيفي وفود اليهود من تركيا وألبانيا واليونان وردوس وألمانيا ، وامتنع اليهود في الدولة العثمانية عن الدعاء في معابدهم للسلطان العثماني محمد الرابع وأبدلوا به الدعاء للهامشيحاه شبتاي بن سليمان بن داوود.

وطاف شبتاي زئيفي في أنحاء الدولة العثمانية , وارتحل إلى سالونيكا في اليونان ، ثم إلى فلسطين فأعلن في القدس أنه:

" **الهامشيحاه المتصرف في مصير العالم كله**".

وفي غزة تبعه حاخامها ناتان ليفي الغزاوي وصار داعيته والمبشر به بين اليهود في كل مكان.

وفي القاهرة آمن به رئيس الطائفة اليهودية في مصر رفائيل يوسف جلبي وجمع له الأموال من أجل تخليص أورشليم.

ثم في سنة 1666 م واليهود في كل مكان من الدولة العثمانية , وفي كل بلد في أوروبا يجمعون الأموال والسلاح والذخائر ويعدون العدة للزحف إلى أورشليم أمر السلطان العثماني محمد الرابع ، بناء على شكوى من حاخامات تركيا وبولندا الأرثوذكس ، باعتقال شبتاي زئيفي ومحاكمته.

فلما مثل شبتاي زئيفي أمام المحكمة خيَّرته في حضور السلطان بين توبته وتراجعه عن دعوته أو أن يأتي بمعجزة يثبت بها أنه المسيح المنتظر ,

والمعجزة التي طلبتها المحكمة هي أن يقبل شبتاي أن يجردوه من ثيابه ويجعلوا جسده غرضاً لسهام المهرة من الرماة , فإن لم تصبه السهام بأذى ولم يمت صدقوه وكان هو الهامشيحاه!

وكان رد شبتاي على المحكمة أن أعلن إسلامه وأطلق على نفسه اسم محمد عزيز أفندى ، وعينه السلطان في وظيفة حاجب القصر السلطاني ، فصار اسمه الجديد : محمد أفندي البواب.

ومن حينها صار شبتاي زئيفي رجلين مختلفين , أو رجلاً واحداً له ظاهر لا علاقة له بباطنه ، فهو في العلن محمد أفندي المسلم الذي يصوم ويقيم الصلوات ، وفي السر هو شبتاي زئيفي اليهودي والهامشيحاه مخلص اليهود.

وبعد شيوع نبأ إسلامه أرسل شبتاي زئيفي رسائله إلى أتباعه ومريديه لينشروها في كل مكان أن :

" **شبتاي القديم صعد إلى السماء ، وبأمر من يهوه حل محله هامشيحاه آخر، ولكن تحت جبة وعمامة**".

وأن:

"**الملائكة قد أتتني وقالت لي : أنت الهامشيحاه الذي سيخلص الأمة اليهودية ، ولكن عليك أن تظهر الإسلام لكي تتمكن من تخليص اليهود** ".

وارتابت السلطات العثمانية في شبتاي زئيفي فاعتقلته داخل معبد يهودي محاطاً باتباعه يقرأون مزامير داوود ويتدارسون التلمود , فحكم عليه بالنفي إلى دولسينجو في ألبانيا ، فظل فيها إلى أن مات سنة 1675م.

وكان قد انفض من حول شبتاي ودعوته بعد أن أعلن إسلامه من كان قد اجتمع إليه من اليهود ما عدا مائتي أسرة يهودية بقيت على إيمانها به وتصديقها لدعوته واتباعها لتعاليمه الجديدة التي كان هو قدوتهم فيها وأوفى نموذج لهما.

وهذه الأسر المائتان هي ما أتيناك بموجز سيرة شبتاي زئيفي ودعوته من أجله.

فقد صارت هذه الأسر التي هاجر أغلبها إلى سالونيكا طائفة جديدة لا هي باليهودية ولا هي بالمسلمة ، بل هي يهودية ومسلمة في الوقت نفسه.

وهذه هي طائفة الدونمه Donmeh ، وهي كلمة تركية تعني لغوياً المرتدين أو العائدين ، والتي انقسمت بعد موت شبتاي زئيفي على يد خلفائه إلى ثلاث فرق ، اليعقوبية , والقره قاشية , والقابانجية أو القبانجيلرية.

وطائفة الدونمه عبرت عشرات السنين ومئاتها دون أن يعلم أحد من خارجها عن حقيقتها شيئاً ، بل ودون أن يعلم أحد أصلاً أنه توجد طائفة اسمها الدونمة.

ظلت هذه الأسر عبر القرون تعيش مسلمة بين المسلمين في تركيا , وتسمي أبناءها وبناتها بأسماء مسلمة , وتوقر التعاليم الإسلامية , وتصلي في المساجد وتصوم رمضان وتحتفل بعيدي الفطر والأضحى اتباعها لإحدى تعاليم العقيدة الجديدة التي وضعها شبتاي زئيفي لأتباعه ، وهي:

" **يجب مراعاة عادات الأتراك المسلمين ذراً للرماد في أعينهم ، وعدم إظهار الضيق من صوم رمضان أو عند تقديم الأضحية**".

أما في سرها وخفائها وفيما بينها كانت هذه الأسر يهودية ، يحمل كل فرد من أفرادها اسماً عبرياً يقابل اسمه التركي ولا يُنادى به إلا بين أسرته ، ويصلون صلوات اليهود ويتعبدون طبقاً لشعائرهم , ويتعلمون التوراة والتلمود ، ولا يتزاوجون إلا من بينهم ، وتدون كل أسرة منهم تاريخها وشجرة نسبها ومصاهراتها في سجلات مخطوطة يرثها كل جيل في هذه الأسر عن سابقه , فيضيف إليها ويسلمها إلى لاحقه ، ولا يطلع الفرد منهم على نسبه ونسب أسرته وتاريخها وتاريخ الطائفة وتعاليمها إلا مع وصوله إلى سن البلوغ .

وظلت سجلات أسر الدونمه ووثائقها سراً خفياً إلى أن شب حريق في سالونيكا سنة 1917م فالتهم جزءًا كبيراً من هذه السجلات والوثائق ، وما تبقى منها استقر به المقام في مثواه ومستقره في أرشيف سري في مكتبة الجامعة العبرية في إسرائيل ، ولا يسمح بالاطلاع عليه إلا لأفراد نادرين ، وبضوابط وإجراءات صارمة.

وأول مصدر يشير إلى وجود طائفة اسمها الدونمه ويذكر شيئاً من تاريخها وتعاليمها كان في بداية القرن العشرين ، بعد مائتين وخمسين عاماً من نشأة الطائفة ، وبعد أن وصل تعدادها إلى ما يقرب من عشرين ألفاً ، وبعد أن كانوا قد توغلوا في جسد تركيب العثمانية وتدفقوا فى شرايينها وسروا فى أعصابها وسيطروا على مفاصلها وكونوا مع الماسون واليهود التقليديين الحلف الذي أسقط الخلافة العثمانية .

ففي سنة 1900م نشرت في الأستانة رسالة صغيرة بعنوان : الدونمه كانت أول مصدر مطبوع يُعرف منه أنه توجد طائفة اسمها الدونمة ، تلاها سنة 1917م أول كتاب عن الدونمه لمؤرخ اسمه روزانس، ولأنه دونمي فقد كان المؤرخ الوحيد الذي دخل مكتبة القابانجية قبل احتراقها في حريق سالونيكا سنة 1917م.

وفي أول يوم من سنة 1924م أرسل رشدي قره قاش زاده ، وهو دونمي نشأ بينه وبين طائفته نزاع عنيف عقب طلاقه لزوجته فاتهمته الطائفة بالجنون فخرج عليها ، أرسل رسالة إلى البرلمان التركي يكشف فيها أسرار الطائفة وما فعلته عبر القرون من أجل نشر الانحلال والفساد في تركيا وعملها على إسقاط الدولة العثمانية.

وقد نشرت رسالة رشدي قره قاش في صحيفة : وقت التركية في حينه , ونشر نصها نقلاً عن جريدة وقت المؤرخ التركي مصطفى طوران في كتابه : يهود الدونمه , ورسالة قره قاش هي الآن ضمن الأرشيف السري للدونمه في إسرائيل.

أما ما الذى كان يفعله يهود الدونمه في تركيا عبر القرون فهو نفسه ما كان يفعله اليهود من أسر الملك الإلهي في الغرب : التغلغل في نسيج المجتمع والإندماج الظاهر فيه من أجل الصعود إلى سدته والوصول إلى مواقع التوجيه والسيطرة من أجل تغيير وجهته واتجاه الدولة ودفعها نحو غاية التاريخ اليهودي وهدفه.

إحدى أكبر القنوات التي توغل الدونمه عبرها في نسيج المجتمع التركي الطرق الصوفية المنتشرة في طول تركيا وعرضها.

اندس كثير من الدونمه في تكايا الطرق المولوية والملامتية البكتاشية والخلوتية ، بل ومول يهود الدونمة إنشاء بعض التكايا مثل تكية عزيز محمود خداي شيخ الطريقة الخلوتية وتكية البدوي في الأستانة ، إلى جانب سيطرتهم المطلقة على كل التكايا في مدينتهم سالونيكا ، مدينة اليهود والماسون.

ومن خلال الطرق والتكايا عمل يهود الدونمه على تغيير عقل تركيا وزعزعة عقيدتها عبر تسريب أفكار القبالاه أو التراث الباطني اليهودي ودس رموزها داخل التكايا وخلطها بالتصوف الإسلامي.

والقناة الكبرى الثانية التي سرى فيها يهود الدونمه وسيطروا عليها وسخروها من أجل تخريب المجتمع التركي وإسقاط الدولة العثمانية هي المحافل الماسونية.

فأول محفل ماسوني تم تأسيسه في الدولة العثمانية كان في سالونيكا مدينة الدونمه واليهود سنة 1721م ، والرجل الذي ترأس اللجنة التي أبلغت السلطان عبد الحميد الثاني بقرار خلعه هو الدونمي عمانويل قره صو الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا ريزورتا Macedonia Resorta في سالونيكا ، وهو المحفل الذي كان مركز التدبير للانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني ثم لإسقاط الخلافة من بعد ذلك.

وعما نويل قره صو الأستاذ الأعظم المحفل مقدونيا ريزورتا كان أحد ثلاثة نواب عن سالونيكا في مجلس المبعوثان أو البرلمان التركي ، والثلاثة جميعاً كانوا من اليهود.

وأول أستاذ أعظم للشرق الأعظم التركي هو الدونمي طلعت باشا وزير الداخلية في أول حكومة لحركة للاتحاد والترقي بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني , والصدر الأعظم أو رئيس الوزراء في الحكومة التي تلتها.

وحزب الاتحاد والترقي أوفى نموذج على تغلغل الدونمه في المجتمع التركي , وتسربهم إلى مواقع التأثير في الدولة التركية , وعلى اتحادهم مع الماسون واليهود الصرحاء من أجل تمزيق الدولة العثمانية ليكون هذا التمزيق تمهيداً لإقامة إسرائيل , بالضبط كما أوصاهم الهامشيحاه شبتاي زئيفي.

حركة الاتحاد والترقي التي قادت التمرد على السلطان عبد الحميد الثاني وبثت القلاقل والاضطرابات في أنحاء الدولة وبين قومياتها المختلفة حتى تمكنت من خلع السلطان أسسها سنة 1891م الدونمي إبراهيم تيمو Ibrahim Temo , والدونمي عبد الله جودت Abdullah Cevdet.

وكتاب الطورانية ، وهو الكتب المقدس لحركة الاتحاد والترقي مؤلفه اليهودي موئيز كوهين .

ومن أجل بعث الطورانية والدعوة إلى التتريك ألف موئيز كوهين خمس مؤلفات , ودبج مئات المقالات في الصحف التركية والغربية , وعقدت له عشرات المؤتمرات والمحاضرات , واشتعل بكتاباته وكلماته آلاف الشباب الأتراك وألفوا بأفكاره الجمعيات والحركات وهم لا يعلمون عنه سوى أنه التركي القُح ألب تكين!

وقد صار كتاب الطورانية وسياسة التريك التي قدح شرارتها كوهين ناراً أذابت روابط الدولة العثمانية لتخرج من أتونها عشرات الحركات الانفصالية السياسية والعسكرية التي مزقت الدولة من أجل الاستقلال عنها.

وبعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني تم نفيه إلى سالونيكا واعتقل في قصر التاجر اليهودي الدونمي موشيه آلاتيني.

لأن تاريخ الدونمه غامض وأغلبه سري , ووثائق الطائفة وتاريخها أغلبها مخطوط ومحفوظ في أرشيف سري في إسرائيل ، فثمة خلاف بين المؤرخين حول مصطفى كمال أتاتورك أكان من يهود الدونمه أم لا.

وأما ما لا خلاف بينهم فيه فهو أن أتاتورك هو أحد آثار تغلغل الدونمه في تركيا وسيطرتهم على وسائل صناعة الوعي وتكوين العقول والنفوس وبث الأفكار والآراء فيها ، كما هو شأن اليهود في كل عصر وفي كل مصر، وتسخيرها لإشاعة الإنحلال والفوضى وزعزعة العقائد وبث الإلحاد .

إحدى أبرز أنشطة الدونمه ووسائلهم في اختراق المجتمع التركي كانت تكوين الصحف للسيطرة على الأفكار وصناعة الرأي العام ، وإنشاء المدارس لتكوين وعي الناشئة وملئها بما يريدون.

وأبرز الصحف التركية وأشهرها ، مؤسسوها كانوا جميعاً من الدونمه ، فصحيفة صباح أسسها سنة 1907م الدونمي أحمد أمين يلمان ، وصحيفة حريت مؤسسها الدونمي سداد سيماوي ، وصحيفة ملليت أسستها وتملكها عائلة إيبكجي الدونمية ، وصحيفة ترجمان تملكها أسرة كبار الدونمية.

ومن أشهر المدارس التي أنشأها الدونمه وأرقاها المدرسة الفيضية ومدرسة الترقي في اسطنبول ، والمدرسة الفوزية في سالونيكا.

وأما أشهر مدارس الدونمه على الإطلاق فهي مدرسة شمس أفندي في سالونيكا ، وهى أشهر مدارس الدونمه لأنها المعمل الذي تم تكوين مصطفى كمال أتاتورك فيه.

ما لا خلاف بين المؤرخين فيه ، وما جعل بعضهم يجزم أن أتاتورك من الدونمه ثلاثة أشياء.

الأول: هــو أفكــار أتــاتورك وســلوكه وسياســاته التــي تتطــابق مــع أفكــار الدونمه وأهدافهم.

فتمزيــق الدولــة العثمانيــة وإســقاط الخلافــة وســلخ تركيــا مــن الإســلام الــذي أتمــه أتـاتورك هـو مـا كـان يسـعى إليـه يهـود الدونمـه ويعملـون مـن أجلـه منـذ ظهـور الهامشــيحاه الكــذاب شــبتاي زئيفــي ، لأن تخلــيص اليهــود وتحريــر أورشــليم وإقامــة الدولــة اليهوديــة مــا كــان ليحــدث إلا بعــد إســقاط الخلافــة وتمزيــق بلــدانها وفصــل فلسطين عنها.

والثـــاني: أن أتـــاتورك ولـــد ونشـــأ فـــي ســـالونيكا مدينـــة اليهـــود والدونمـــه والماسون.

والثالــث: أن أتــاتورك تلقــى تعليمــه الأولــي والثــانوي فــي مدرســة شــمس أفنــدي التي أنشأها سنة 1871م بتمويل من فرقة القبانجيلرية الدونميه.

وشــمس أفنــدي هــو الاســم الظــاهري أو العلنــي لأحــد يهــود الدونمــه ، واســمه اليهودي الباطني أو الحقيقي شمعون زئيفي.

وشــمس أفنــدي أو شــمعون زئيفــي هــو أحــد كبــار أحبــار القبــالاه أو التــراث البــاطني اليهــودي ، وكــان أســتاذاً للتلمــود ويقــوم هــو نفســه بتــدريس أســفاره وشــرحها لتلاميذه.

وقــد ذكــر أتــاتورك نفســه فــي مذكراتــه أنــه تلقــى تعليمــه فــي مدرســة شــمس أفنــدي لأنهــا كانــت إحــدى المــدارس القليلــة فــي ســالونيكا التــي تــدرس فيهــا العلــوم الحديثــة واللغــات الغربيــة ، بــل وأفــرد أتــاتورك مســاحة كبيــرة فــي مذكراتــه لشــمس أفندي ذاته , وذكر أنه كان من أكثر الأشخاص تأثيراً فيه.

فأتــاتورك الــدونمي المشــكوك فــي دونميتــه كــان يقينــاً تلميــذاً للدونمــه ، تكــون عقله ونفسه بأفكارهم ، وصنع أهدافه وغاياته ما نفثوه في وعيه ووجدانه .

فــارجع إلــى عــالم الســر والخفــاء وراجــع مــا كشــفه لــك حبــر الماســونية الاعظــم ألبــرت بايــك مــن ان اســتراتيجية الماســون والحركــات الســرية لتحقيــق اهــدافهم

والوصـول إلـى غايـاتهم عبـر التـاريخ ليسـت الوصـول إلـى السـلطة واعـتلاء العـروش بـل صـناعة مـن يصـلون إلـى السـلطة واسـتيطان عقـول مـن يعتلـون العـروش , لـتعلم أن الذي أسقط الخلافة ليس أتاتورك في الحقيقة ، بل من كونوا أتاتورك وصنعوه.

والآن أقرأ هذه العبارة بعناية:

يقـول يتسـحق زئيفـي Ytzhak Zevi ، وهـو ثـاني رؤسـاء إسـرائيل ، وأحـد البـاحثين فـي تـاريخ الدونمـه ، ومـن النـوادر الـذين أطلعـوا علـى أرشـيف الدونمـة السري في إسرائيل في كتابة : الدونمة الصادر سنة 1957م:

" **إن يهـودا كثيـرين جـداً يعيشـون بـين الشـعوب بطبيعتـين ، إحـداهما ظـاهرة وهـي اعتنـاق ديـن الشـعب الـذى يعيشـون بـين أفـراده ظاهريـاً ، والثانيـة باطنية وهي إخلاص عميق لليهودية**".

فأعـد قـراءة العبـارة بتـأن وتأمـل ، وأغفـل مـا عرفنـاك بـه مـن اسـم الكتـاب الـذي جـاءت فيـه وصـفة مؤلفـه ، واختبـر ذكـاءك أن تسـتطيع أن تميـز إن كانـت هـذه العبـارة وصـفاً ليهـود الدونمـه فـي بـلاد الإسـلام أم لليهـود مـن أسـر الملـك الإلهـي فـي بلاد المسيحية؟!